خلفيات الطب الاستعماري
في فكر الطبيب فرانز فانون

أ, د.شعيب مقنونيف

جامعة تلمسان

تمهيد

يشكل السياق في كل قراءة أحالت على "خارج" حضورا يلون خلفيتها الفكرية وحيثياتها المعرفية، تغترف منه مقومات الفعل القرائي، حين تباشر النص، مستخدمة أدوات ومناهج "العلم" الذي تحيل عليه، دائرة في فلكه، فتتسمّى باسمه وتُنعت بوصفه. والقراءة التاريخية شاهد على تلاحم التاريخ والفعل التاريخي، لتشكيل ما أسماه النقاد "بتأريخ الحوادث" على أساس نقلها ووصفها لمختلف الحوادث وتطورها من خلال السيرورة التاريخية.

ولإدراك ميكانزمات هذه القراءة كان علينا أن نمسح السياق مسحا عاماً يوقفنا على مناهجه وأدواته حتى يتسنى لنا معرفة سريانها إلى "الحكم التاريخي"، ومدى ملاءمتها له، وخطورتها عليه فنكون بذلك على بيّنة من منطلقات هذه القراءة إيجاباً وسلبا.

من هذا المنطلق تأتي قراءتنا لفكر وأدب فرانز فانون من خلال بعض مؤلفاته التي سعى فيها إلى تظهير خلفيات سياسة التطبيب الإستعماري الفرنسي في الجزائر.

ولعله من الأفيد الإشارة إلى أن أهميّة أعمال فانون تكمن في << قدرته على الجمع بين ما هو سياسي وما هو اجتماعي، وتحليلهما انطلاقاً من علم النفس >>[1].

وغير خاف أنّه لمّا عثيّن في مستشفى جوانفيل بالبُليدة، حاول أن يقارب المرضى من خلال نظرة شاملة لوضعهم السياسي الاجتماعي، قصد تحريرهم من قيود العلاجات التقليدية[2].

كما أنّه لما كانت الهيمنة هي العامل الأساس في الاضطرابات النفسيّة، اقتنع فانون بوضع مرضاه في محيطهم الاجتماعي بدل حجزهم في غرفٍ ضيّقة. لذلك لم تكن طريقة

---

[1] أدّت بشرة فانون السوداء دوراً كبيراً في كتاباته لا سيما لما اشتغل ضمن صفوف القوات الفرنسية، حيث بدأ يستشعر ذلك الاستعلاء الذي يمارسه الجنود الفرنسيون البيض على غيرهم من الجنود السود، إضافة لحجم العدوانية والعنف اللا متناهي الذي يمارسونه ضد الشعب الجزائري بمختلف شرائحه.

[2] ينظر: د أحمد العتاكي، مثقفون في مهب الثورة، منشورات الثقافة: بيروت، د.ط، د.ت، ص 114.

MOKARABAT

العلاج تلك مجرّد تقدّم علمي، بل موقفاً ينسجم مع إدراك فانون العميق لمسألة الحريّة وتأثيرها على شعور الإنسان بكرامته.

وفي المقابل، أكّد فانون أنّ المستعمَر، والشاهد هنا الشعب الجزائري، لم يَخض معارك التحرير إلا عندما أدرك أنّه ندّ للرجل الأبيض وليس حيوانه الأليف. من هنا ازدادت حاجة فانون إلى الرّغبة الجامحة في الحريّة، فانضمّ إلى جبهة التحرير الوطني عام 1956 بعد سنتين من اندلاع الثورة المباركة.

وجلبت كتابات فانون له التشريد والاضطهاد حيث نُفي إلى تونس، ورب ضارة نافعة، فتابع نشاطه السياسي، مسهمًا في تحرير نشرة «المجاهد»، وأصبح في 1957 الناطق الرسمي باسم «جبهة التحرير» التي عيّنته سفيراً لها في غانا[3].

ولا بأس من التذكير أنه ومنذ بداية الغزو الفرنسي للجزائر عام 1830، اتّسمت السياسة الاستعمارية بالوحشية والقساوة المفرطة. وسِجل الاستعمار الفرنسي في الجزائر مليء بالشواهد والوقائع والجرائم ضد شعبنا الأعزل في هذا الشأن، والتي ترقى إلى جرائم ضد الإنسانية خلال كل مراحل الاستعمار الفرنسي في الجزائر[4].

إن الجرائم كانت تمارس بشراسة ووحشية وبوسائل تقليدية وأخرى غير تقليدية، مع ابتكار أساليب تعذيب جهنمية متطورة راح ضحيتها آلاف الجزائريين في السجون و المحتشدات التي بلغت المئات تزامناً مع اشتداد الثورة واتّساع نطاق عملياتها العسكرية ضد الجيش والمصالح الاستعمارية، حيث تحولت الحرب من المنظور الاستعماري إلى حرب إبادة شاملة تستهدف القضاء لا على جيش التحرير والمجاهدين الجزائريين فحسب، بل امتدت وفق آليات القمع والتعذيب التي انتهجتها السلطة الاستعمارية الفرنسية إلى القضاء على المدنيين العزل أنفسهم[5].

---

[3] تركز جهده السياسي على توحيد المعركة بين دول العالم الثالث. فحركات التحرّر التي ألهبت منتصف القرن الماضي في أميركا اللاتينية وآسيا وأفريقيا مثّلت الإطار السياسي لفكر فانون الذي كان همّه الأوّل أن تجد شعوب العالم الثالث المسلوبة الثروات والقرار، مكانها بين القطبين الشرقي والغربي (نفسه، ص120) .

[4] ينظر: – د.فؤاد عبد الحي: السياسة الفرنسية الإستعمارية في الجزائر، دار الرسالة: الخرطوم، القاهرة، 1962، ص 93، وما بعدها.

– د. مراد أمين الجادي، سوسيولوجية الثورة وواقع السياسة الإستعمارية، دار الصحف للنشر والتوزيع،د.ط، د.ت، ص 63.

– عبد الحق العلوي، الحرب بين البداية والنهاية: قسوة المستعمر، منشورات الهلال، د.ط، د.ت، ص 47.

[5] ينظر: سوسيولوجية الثورة وواقع السياسة الإستعمارية..، ص 71.

MOKARABAT

إن إستراتيجية حرب الإبادة في المنظور الاستعماري هي وحدها الكفيلة بالقضاء على مقاومة الشعب، وإضعاف قدراته القتالية والنضالية، وزرع روح الخوف واليأس والهزيمة في صفوف فئاته.

لذلك عُدّت المرحلة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر حقبةً تاريخيةً مهمّةً على الصعيد الإقليمي والإفريقي والعالمي، وقد تميّزت سياسات فرنسا، بقمع حركات المقاومة الوطنية بكل وحشية وقساوة[6].

وهكذا تأتي مسألة الأضرار المترتبة على المرحلة الاستعمارية في مقدمة المسائل المطروحة التي يجب التذكير بها. ذلك أن هذه القضية، أي قضية الأضرار، إلى جانب كونها إحدى القضايا المهمّة المتّصلة بحركات الجهاد والمقاومة المشروعة ضد الاستعمار والغزو الفرنسي للجزائر، لم تنل حظّها بعد من الدراسة والتمحيص، و هي قضية إنسانية لازالت حيّة تؤرّق بال الرأي العام الجزائري بشكل خاص. وهي ناجمة، في اعتقادنا عن معسكرات الاعتقال والمحتشدات الجماعية التي أقامتها السلطات الفرنسية في الجزائر، والتي ما هي، في حقيقة الأمر إلا آلية من آليات القمع المتعددة ضد الجزائريين، وخاصة إبّان مرحلة حرب التحرير الجزائرية (1954 – 1962)، حيث عَدّت سلطات الاحتلال، عسكرية كانت أم مدنية، كل جزائري يمثل نشاطه **خَطراً** على الأمن العام والنظام يستوجب اتّخاذ أي إجراء ضده ينهي نشاطه حتى وإن كان ذلك الإجراء هو التصفية الجسدية.

وهكذا، أقامت فرنسا في أماكن مختلفة من التراب الجزائري آلافاً من المحتشدات أو المنافي حُشر فيها ما لا يحصى من الجزائريين من مختلف الأعمار أصّحاء ومرضى، أطفال وشيوخ، نساء ورجال؛ وبدون مراعاة لعامل السّن أو الجنس أو الوضع الصّحي وما إلى ذلك، الجميع كانوا يعاملون معاملة وحشية لا مثيل لها على مختلف المستويات، وذلك بهدف قطع الاتّصال نهائياً بين الشعب وجيش التحرير، وقتل المبادئ الثورية، وزرع روح اليأس والهزيمة في نفوس أفراده بمفعول الحصار وتجفيف كل مصادر الإعانة عنه[7].

ولذلك.. لم يقتنع فرانز فانون بإمكان عزل القضيّة الجزائريّة عن قضايا

---

[6] ينظر: السياسة الفرنسية الإستعمارية في الجزائر..، ص 97.

[7] ينظر: طلاس مصطفى، وبسام العسلي، الثورة الجزائرية،، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر: دمشق، 1984، ص ص 345 – 348.

MOKARABAT

" المنبوذين في الأرض"، بل كان نضاله المكثّف خلال السنوات الأخيرة من حياته يتركّز على توحيد الجهود بين كلّ حركات المقاومة[8].

وفي كتاب فرانز فانون الوصيّة " المنبوذون في الأرض"، أو" معذبوا الأرض"[9]، يفنّد أسباب العنف الثوري بوصفه نتيجةً حتميّةً للضغط المتولّد من القمع والاستبداد. لم يبرر فانون لجوء الشعوب إلى العنف لتحديد مصيرها، بل قال إنّ حركات التحرر تكلّمت مع المستعمر بلغته نفسها.

ورأى أنّ نجاح الحركات الثوريّة لا يواجه معوقات خارجيّة فحسب، بل داخليّة أيضاً وأساساً: كالعقليّات البورجوازيّة التقليديّة في المجتمعات المحررة، والفساد في الأنظمة الحاكمة، وهو يلتقي هنا بفكرة الشيخين؛ العلامة عبد الحميد بن باديس، والشيخ البشير الإبراهيمي، يرحمهما الله، لما أشارا إلى أن الجزائر قد ابتليت بنوعين من الاستعمار؛ استعمار خارجي، واستعمار داخلي والثاني أخطر وأمر من الأوّل.

وتنبع أهمية هذا الكتاب "معذبوا الأرض" من أنه لا يكتفي فقط بتشريح بنية العنف الاستعمارية، لكنه يشرح أيضاً وبالتفصيل ذاته الكيفية التي يجب بها مقاومة هذا العنف الاستعماري. يبين فانون أن المسئول عن ثقافة العنف هو المستعمِر، فهو الذي يخلق مناخاً عاماً من الممارسات العنيفة الوحشية، ويجد التبريرات المختلفة اليومية للقتل والتدمير. من هنا، فإن المستعمَرين لا يجب أن يُلاموا على العنف الذي يمارسونه ضد المستعمِرين بكسر الميم؛ فما اكتسبوه من ممارسات عنيفة قد تولد كرد فعل لما يواجهونه على أيدي الجلادين المستعمِرين لهم. ويؤكد فانون في معرض تحليله للممارسات العنيفة والدموية الاستعمارية على أهمية دور الثقافة الوطنية في مواجهة الثقافة الاستعمارية، لذلك مزج فانون في تفسيراته بين التحليل النفسي والأنثروبولوجيا والاجتماع والسياسة، كما منح اللغة دوراً هاماً وكبيراً في تحليلاته

---

[8] ينظر: د.صالح سليمان عبد العظيم،" خمسة وأربعون عاما على رحيل فرانز فانون"، مجلة ديوان العرب (الإلكترونية)، بتاريخ 10ديسمبر 2006.

[9] صدر عام 1961 بأيام قليلة قبل وفاته، وهو امتداد لكتابه الأول "**بشرة سوداء وأقنعة بيضاء**" حيث يكمل التحليلات التي انطلق منها في كتابه الأول، فيتعمق أكثر في دراسة الظاهرة الاستعمارية من خلال توقفه عند ظاهرة محدّدة وهامة ألا وهى ممارسة العنف ضد المستعمِرين، بشكلٍ منظم وممنهج ويومي. وفي هذا السياق، يركز فانون على جملة الممارسات الدموية العنيفة التي مارسها الاستعمار الفرنسي ضد الجزائريين طوال فترة الاحتلال. فمن خلال العديد من الحالات التي قابلها فانون استطاع أن يبين حجم التأثيرات السلبية الهائلة التي أحدثتها ممارسات العنف الاستعمارية على البنية النفسية للجزائريين المقموعين الذين تعرضوا لعمليات طويلة ومتواصلة من التعذيب المنظم.

MOKARABAT

للممارسات الاستعمارية العنيفة، بوصفها الأداة الهامة والأكثر تأثيراً في مقاومة ثقافة الهيمنة الاستعمارية التي يفرضها المحتلون على الخاضعين له[10].

موقف فرانز فانون من الطب الاستعماري

يُعدّ الطب مفخرة التجربة الاستعمارية، في رأي النخب الكولونيالية، لأنه أنقذ حياة المستعمَرين، وخفض وُفيات الأطفال، وأدخل سبلا علاجية حديثة كانت هذه الشعوب تجهلها تمام الجهل، وهذه أكذوبة أخري من أكاذيب ممتدحي الدور التقدمي للكولونيالية أو مزايا الاستعمار[11].

يلاحظ الطبيب فرانز فانون أن الطب في الجزائر لا يمارس كما يمارس في فرنسا لأن شخصية الطبيب في باريس الذي حصل على وضع اقتصادي نتيجة وضعه العلمي هي غير شخصية الطبيب في الجزائر الذي تقترب شخصيته من شخصية المغامر أو المستكشف، ونادراً ما نجد هذا الطبيب الذي يعيش من دخله من الطب إنما هو مزارع أو مالك كروم أو يمارس التجارة. يقول فانون:

<< وعندما لا يكون الطبيب رهين زبائنه فحسب، من حيث الكسب، وإنما تأتيه دخول هائلة من موارد أخرى فإنّه يكون لنفسه مفهوماً معيناً عن الأخلاق المهنية والممارسة الطبية >>[12].

إن الغطرسة الاستعمارية واحتقار الزبون والجلافة الحاقدة في تصرفه مع المريض من الأهالي وفقدان الضمير، نجدها كلها في قليل أو كثير في ثنايا الجملة التالية: " إنني لا أعيش من وراء الزبائن"، وفي المركز الاستعماري يكون الأطباء ذوي انتماء يساري أو ديمقراطي غالباً بسبب احتكاكهم بالألم البشري. أما في المستعمرات فالأطباء جزء من الهيئة المستعمرِة ومن الاستغلال. لذلك تجدهم أكثر يمينية لأن هاجسهم ينحصر في بقاء الاستعمار، ومن ثم كانوا في دائرة الاستهداف من قبل مناضلي جبهة التحرير الوطني إبّان الثورة، وهذا أمر شوّش أذهان حتى المتعاطفين مع الجبهة في الغرب فهم لا يفهمون هذه الحقائق ولا يستوعبون كيف يمكن أن يكون الطبيب مجرم حرب. لأنهم لم يسمعوا عن طبيب يساهم في تعذيب الثوّار[13].

---

[10] المرجع السابق.

[11] ينظر: إدوارد كالطون، من ذكريات فانون الطب والسياسة، ترجمة د. رضا أنور العايدي، دار الشمال للترجمة والنشر والتوزيع، د.ط، د.ت، ص 215.

[12] نفسه، ص 54.

[13] ينظر: خمسة وأربعون عاما على رحيل فرانز فانون..

MOKARABAT

لذا فمن الطبيعي أن يتّخذ الجزائري موقفاً من الطب الحديث ومن الطبيب ويجده امتداداً للمستعمر ويبقى يعالج نفسه بالطب البدائي التقليدي المتوارث فلا يلجأ للمستشفى الاستعماري إلا مضطراً.

لكن كل ذلك يتغير مع اندلاع الثورة وانضمام الأطباء إلي جبهة التحرير الوطني، فجميع سكان الأرياف حتى المتخلّفة منها يطّبقون تعليمات الطبيب بحذافيرها ويبحثون عن الحقن والأدوية للجرحى، ويعقمون الجروح بالكحول.

و المفارقة هي أن المستعمِر، الآن، هو مَن يمنع هذه الأشياء عن المواطن كي لا تتسرب لمقاتلي جبهة التحرير.

وتتغير أيضاً وضعية الطبيب الأهلي، الذي كان ينظر له من قبلُ على أنّه سفير رجل الاحتلال، أما بعد التحاقه بالثورة فيندمج مع الجماعة، يصبح قطعة من لحم الجسد الجزائري فلم يعد الطبيب، أي طبيب وإنما أصبح طبيبنا نحن وخبيرنا نحن. وتنهار الأوهام القديمة المتعلقة بالسحر وقدرة بعض الرجال على شفاء الأمراض دفعة واحدة. إن العالم القديم ينهار دفعة واحدة بفعل اندلاع الثورة وتتطهر الأرواح بنار الثورة وتستعد لاستقبال عالم جديد. وهذا ما دعا ديغول لمخاطبة المتطرفين قائلاً إن جزائر بابا قد ماتت[14].

MOKARABAT

[14] ينظر: سوسيولوجية الثورة وواقع السياسة الإستعمارية..، ص 97.

و**في الختام** نجدّد القول إن فرانز فانون امتاز بنظرته العميقة للأمور وقدرته على النّفاذ إلى عمق الظواهر الاجتماعية، وساعده على ذلك اختصاصه في الطب النفسي فطبّق بعض مناهج التحليل النفسي التى تخص الأفراد على المجتمعات. لذلك لم يقع في النظرة التبسيطية ولم يتوقف عند سطح الظواهر.

ففي كتاب "بشرة سوداء وأقنعة بيضاء"[15]، يتناول فانون مسألة على درجة كبيرة من الأهمية تتمثل في تحليله العميق للظاهرة الاستعمارية من الداخل بوصفه محللاً نفسياً. لقد مكنه التفسير النفسي للظاهرة الاستعمارية من التوقف عند التأثيرات التي يحدثها الخضوع للمستعمِر على نفسية المستعمَرين بفتح الميم. والدور الهائل الذي يقوم به المستعمِر في مسخ المستعمَرين وتيسير خضوعهم له. فالمستعمِر يفرض قواه العقلية والفكرية على المستعمَرين الخاضعين له، بما يجعلهم يؤمنون في النهاية بأهمية هذا المستعمِر وحتمية خضوعهم له. وهى عملية ليست وليدة لحظة الاحتلال، لكنها عملية طويلة ومتواصلة من أجل تأمين خضوع الشعوب المستعمَرة للغزاة المتوحشين أصحاب البشرة البيضاء والأقفية الحمراء. والتحليل النفسي هنا يتم في ضوء ربط المعاناة الفردية للخاضعين في ضوء السياق الاجتماعي الأشمل الذي يشملهم من خلال هيمنة المستعمِرين الغاصبين. فالمسألة لا تتعلق بدراسة حالات فردية منفصلة بقدر ما تتعلق بإيجاد رابط اجتماعي سياقي عام يربط هذه الحالات، وهو هنا مستوى العنف والوحشية الممارسة ضد هؤلاء المواطنين المحتلين.

واعتماداً على القانون الأساسي الذي يحكم العالم الكولونيالي، وهوالانقسام العميق إلي مستعمِرين ومستعمَرين، **استنتج فانون** أنه لا يمكن قط أن يتفق طرفا هذا العالم على احترام قيمة ما في الوقت نفسه. كما أنه أدرك أن كل الظواهر والعادات والتقاليد ما إن تدخل في سياق العالم الاستعماري حتى تكتسب سياقاً ومعاني ودلالات جديدة. لأن العلاقة بين المستعمِر، والمستعمَر هي علاقة تناحرية على الدوام. علاقة قائمة على العنف؛ عنف المستعمِر، وعنف المستعمَر.

[15] صدر في عام 1952

MOKARABAT